مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ـ المجلد ١٠ (العددان ١و٢) ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م

شعر شعراء الرسول (ص) في صدر الإسلام
بين الالتزام والفن

الدكتور محمد آلتونجي
أستاذ في
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة حلب

عدنان أحمد
طالب الدراسات العليا في
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة تشرين

تتحدث هذه المقالة عن شعر شعراء الرسول (ص) (حسان بن ثابت ،كعب بن مالك ، عبد الله بن رواحة) في صدر الإسلام . ونحاول أن نعرف الى أي حدّ التزموا بالدعوة الجديدة ،ومدى تأثير هذا الالتزام في شعرهم من الناحية الفنية .

لم يعد يخفى على أحد أن قريشا رأت في الدعوة الاسلامية خطرا يهدد مصالحها، فوقفت منذ البدء موقف المعادي لها ،وعملت من أجل القضاء عليها متبعة أساليب مختلفة لذلك ،فكذّبت الرسول(ص) ،وعذّبت المسلمين ،بل عذّبت الرسول(ص) نفسه بعد وفاة عمه أبي طالب ،ووفاة زوجته السيدة خديجة (ر) .

لكن الشعر لم يظهر بمثابة سلاح في مواجهة الدعوة ،إلا بعد الهجرة إلى المدينة، حيث عجزت قريش أن تنال من الرسول (ص) بيدها،بعد أن أصبح ذا قوة لايستهان بها. ولم يكن هذا السلاح الجديد سهلا ولا هيّنا، وأدرك الرسول (ص) وأتباعه خطورته ،فرأى (ص) أن يواجه المشركين بسلاح مماثل ، فقال (ص) : " مايمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان : أنا لها ،وأخذ بطرف لسانه وقال : والله مايسرني به مقول بين بصرى وصنعاء" (١). وانضم الى حسان شاعران آخران هما كعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة الأنصاريان . فكان كعب يخوفهم الحرب ، وعبد الله يعيرهم بالكفر ، وحسان يقبل على الأنساب (٢).

ونستطيع أن نتبين ثلاثة أساليب اتبعها هؤلاء الشعراء في مواجهة المشركين:

آ ـ الهجاء والتهديد

ونجد أن حسان يهتم بالهجاء أكثر من رفيقيه ، وكان معظم اهتمامه ينصبّ على تجريد المهجو من نسبه ، لئلا يتعرض ـ من حيث لايعلم ـ للرسول (ص) أو لأحد من آل بيته . ولذلك نراه يعتبر أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب منوطا بآل هاشم وليس منهم في هجائه له، يقول (٣) :

وكنتَ دعيّا نِيْطَ في آلِ هاشمٍ
كما نيط خلف الراكب القَدَحُ الفردُ

١ـ الأغاني:١٣٧/٤. وانظر الاستيعاب :١/ ٣٤٢، وأسد الغابة : ٤/٢ .

٢ـ الاستيعاب : ١ / ٣٤٢، وأسد الغابة ٢ / ٤ .

٣ـ ديوان حسان : ١/ ٣٩٨. وانظر ديوانه أيضا : ١ / ٤٠١ .

وبهذا الاسلوب أيضا هجا أبا جهل (٤)، وأبا لهب بن عبد المطلب (٥)، والحارث بن هشام (٦) وغيرهم .

ولم يقتصر هجاء حسان على الأفراد، وانما هجا بعض القبائل أيضا. فقد هجا قريشا (٧) وهوازن (٨) وهذيلا (٩) وغيرها.

واذا انتقلنا الى شعر كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وجدنا أن هجاءهما قليل جدا . أما كعب فقد ذهب الى التهديد والوعيد، وأما عبد الله فاننا لانجد في شعره الذي وصلنا شيئا يذكر من هجاء أو تهديد، رغم اشارات القدماء الى أنه كان يهجو المشركين بالكفر (١٠) . ويمكن أن نرجع ذلك الى عدة أسباب :

١ – ضياع بعض شعره لاستشهاده في وقت مبكر نسبيا .

٢ – اسقاط بعض شعره، فيما بعد، عندما عمّ الاسلام أكثر مناطق شبه الجزيرة العربية، لاتهامه الآخرين بالكفر .

٣ – اختلاط بعض شعره بأشعار رفيقيه كعب وحسان .

ب – الرد على شعراء المشركين

وقف شعراء الرسول (ص) في مواجهة شعراء المشركين، ودارت بين الطرفين حرب كلامية عنيفة تركت لنا عددا كبيرا من النقائض قيل أغلبها في أعقاب المعارك والغزوات . ونحن لن نذكر هنا تلك النقائض أو نتحدث عنها بالتفصيل، اذ لايتسع المقام لذلك، وانما سنكتفي بالاشارة الى أن شعراء الرسول(ص) قد قالوا، فأحسنوا القول وأجادوا، فدحضوا مزاعم المشركين، وأشاروا الى انكسارهم وجبنهم واستطاعوا، بكلمة موجزة، أن يقفوا في وجههم وأن يذودوا عن حياض الدعوة الاسلامية .

ج – تأكيد نبوة الرسول (ص) :

وكان على شعراء الرسول (ص) أن يؤكدوا هذه الحقيقة التي أنكرتها قريش، وحاولت – بكل وسائلها – أن تحمل القبائل الأخرى على انكارها . وكان هذا التأكيد يعني فيما يعنيه تكذيبا لقريش ودفاعا عن الرسول (ص) وعن المسلمين جميعا . ومن هنا كثرت في أشعارهم الأبيات التي تؤكد نبوته (ص) . يقول حسان (١١) :

فنشهد أنك عبد المليك
أرسلت نورا بدين قيم

ويقول ابن رواحة (١٢) :

لو لم تكن فيه آيات مبيّنة
كانت بداهته تنبيك بالخبر

ولم يكتف هؤلاء الشعراء بذلك، بل ذهبوا الى تأكيد طاعتهم له (ص) (١٣) واستعدادهم للدفاع عنه بالمال والروح والولد (١٤)، وتسفيه رأي من خالفه من الناس (١٥).

ولم يقتصر شعراء الرسول (ص) على الدفاع عن الدعوة الجديدة، بل قدموا لنا، من خلال أشعارهم، صورة واضحة لذلك

---

٤ – المصدر السابق : ١/ ٣١٩ .
٥ – المصدر السابق : ١/ ٣٩٠ .
٦ – المصدر السابق : ١ / ٤٠٨ .
٧ – المصدر السابق : ١ / ١٦٥ .
٨ – المصدر السابق : ١ / ٢١٦ .
٩ – المصدر السابق : ١ / ١٧٣
١٠– الاستيعاب : ١ / ٣٤٣ .
وأسد الغابة : ٢ / ٥

١١– ديوان حسان : ١ / ٥٨.
١٢– ديوان عبد الله : ٩٥ .
١٣– ديوان كعب : ٢٤٧ .
١٤– ديوان حسان : ١/ ٥٨ .
١٥– ديوان كعب : ٢٤٧. و ٢٥٥ .

العصر ، ولاسيما لمرحلة عهد النبوة التي يمكن اعتبارها ، بحق ، الفترة الذهبية لانتاجهم الشعري . فعلما مرّت غزوة الا دكروها ، أو معركة الآ صوروها ، فمجدوا البطولات ، ورثوا الشهداء ، وصوروا هزيمة المشركين وانكسارهم .

ومهما يكن من أمر ، فقد اندمج شعراؤنا بالدعوة الاسلامية بكليتهم ،وكان من الطبيعي – تبعا لذلك – أن يظهر آثر الاسلام في شعرهم واضحا جليا ، ليس باستخدام لألفاظ أو عبارات اسلامية فحسب، بل بانعكاس القيم الجديدة والمفاهيم الاسلامية في شعرهم أيضا. فقد فهموا الموت انتقالا من دار الدنيا الى دار الآخرة التي تحاسب فيها كل نفس بما كسبت ؛ فأكثروا من ذكر هذه الدار ولاسيما في سياق الرثاء،حيث أشاروا الى الجنة التي تنتظر المرثي ؛ يقول حسان في رثاء خبيب(١٦)

صبرا خبيب فان القتل مكرمة

الى جنان نعيم يرجع النفس

أما مصير الكافرين فهو جهنم وساءت مصيرا (١٧)؛وقد آشاروا الى البون الشاسع بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين؛ يقول كعب (١٨) :

شتان من هو في جهنم ثاويا

أبدا ومن هو في الجنان مخلد

هذا الفهم الجديد للموت كان لابد أن يؤثر على فهمهم للحياة ، فلم يقبلوا عليها اقبال الجائع النهم ، بل أقبلوا اقبال الحذر العارف للعاقبة . ونظروا اليها على أنها وسيلة الى غاية أسمى ومحلّ أرقى، يتوسل بها المؤمنون،ويدفعونها ثمنا لتلك الغاية ، والى ذلك يشير كعب في قصيدته التي قالها يوم أحد ؛ يقول(١٩) :

وقال رسول الله لما بدوا لنا

ذروا عنكم هول المنيات وأطمعوا

وكونوا كمن يشري الحياة تقربا

الى ملك يحيا لديه ويرجع

ولم يعد الهدف من الأعمال الحميدة تحقيق أمجاد دنيوية ، بل تقربا الى الله سبحانه ونيلا لرضاه . وقد أشار كعب الى دلك في رثائه لحمزة (ر) (٢٠) :

فقد كان عِزّاً لأيتامنا

وليث الملاحم في البزّة

يريد بذاك رضا أحمد

ورضوان ذي العرش والعزّة

أما الحرب فقد فهمت على أنها جهاد في سبيل الله ، يبتغي المقاتل من ورائها اعلاء كلمة الله ونيل رضاه وكسب الثواب. وهكذا كان الدافع اليها أحد أمرين : اما الدفاع عن الدين والمسلمين ،واما نشر هذا الدين بين الناس ؛ يقول كعب (٢١):

نقاتل معشرا ظلموا وعقّوا

وكانوا بالعداوة مرصدينا

لننصر أحمدا والله حتى

نكون عباد صدق مخلصينا

ومن هذا المنطلق ، منطلق الجهاد في سبيل الله ، اكتسب المسلمون المقاتلون لقب " جنود الله " (٢٢) ، أما أعداء المسلمين فهم " أعداء الله " (٢٣)كذلك طرأ تحول على مفهوم " البطولي " فسقط كثير من المعايير التي كونته في الجاهلية ، ووجدت معايير جديدة عملت على تكوينه في الاسلام لعلّ أهمها الايمان وحبّ الشهادة .

---

١٦ – ديوان حسان / ٢٢٧/١

١٧ – المصدر السابق : ١ / ٣٣٨ .
ديوان كعب : ٢٩٢

١٨ – ديوان كعب : ١٩١ .

١٩– المصدر السابق : ٢٢٤

٢٠– المصدر السابق : ٢١٦

٢١– المصدر السابق : ٢٧٩، ٢٨٠ .

٢٢– المصدر السابق : ٢٩٢ .

٢٣– المصدر السابق : ٢٤٦، ٢٤٧ .

فاذا انتقلنا الى الحديث عن الأغراض، وجدنا غياب بعض الأغراض، كالحديث عن الخمر ومجالسها، وضمور بعضها الآخر كالغزل والهجاء الشخصي. ويعود السبب في ذلك الى موقف الاسلام من الخوض في هذه الأغراض. أما الأغراض الأخرى كالمديح والهجاء والفخر والرثاء فقد استمرت، ولكن بعد أن حوّرفيها الاسلام وعدّل. فالمديح لم يعد وسيلة للتكسب، وانما صار نوعا من الجهاد الديني المقدس المأجور؛ وظهر أثر الاسلام فيه واضحا جليّا. ولنستمع الى حسان يمدح الرسول (ص) بهذه الأبيات (٢٤):

شق له من إسمه كي يجله
فذو العرش محمود وهذا محمد
نبي أتانا بعد يأس وفترة
من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا
يلوح كما لاح الصقيل المهند
وأنذرنا نارا وبشّر جنة
وعلمنا الإسلام فالله نحمد

وهذا الغرض قليل في أشعار هؤلاء الشعراء. أما الهجاء السياسي فقد كثر بشكل ملحوظ بسبب الحرب الكلامية التي دارت بين المسلمين والمشركين، والواقع أن الاسلام سمح بالهجاء كسلاح من أسلحة الدعوة، يوجه ضد أعدائها فقط، فاذا خرج عن الطريق التي رسمها له، فان السلطة الاسلامية تعاقب عليه. وموقف عمر بن الخطاب (ر) من هذا الأمر معروف مشهور (٢٥).

وقد استخدم شعراؤنا طريقة الجاهليين كتجريد المهجو من القيم الجاهلية الايجابية، ولكنهم استخدموا أيضا الأسلوب الاسلامي كهجاء الآخرين بالكفر وتجريدهم من القيم الاسلامية العليا.

---

٢٤ ـ ديوان حسان : ٣٠٦

٢٥ ـ انظر مثلا العقد الفريد : ٣١٧/٥ ، والعمدة : ١ / ٥٢ ، والأغاني ١٤٠/٤.

وكان من الطبيعي أن يكثر الرثاء بسبب كثرة المعارك التي دارت، وكثرة الشهداء. والواقع أن شعراءنا فهموا الرثاء، كما فهمه أسلافهم، مديحا للميت، فمدحوا موتاهم، لكنهم مدحوهم بقيم اسلامية خالصة في أغلب الأحيان؛ فأشاروا الى الأعمال الصالحة التي كان يقوم بها المرثي في حياته لنيل الثواب، وأشاروا الى الجنة التي تنتظره. ومما يلاحظ في هذا المجال أن اسلوب التهويل الذي كنا نجده عند الجاهليين قد اختفى، كما قلّ اسلوب المبالغة.

وكما أثّر الإسلام في هذه الأغراض أثّر في موضوع الفخر، فدخلت القيم الاسلامية هذا الميدان من بابه العريض، فتمسك الشعراء بها وتغنوا، تاركين بعض القيم التي افتخر بها الجاهليون، متمسكين ببعضها الآخر، ولكن بعد أن عدّلها الاسلام قليلا أوكثيرا، ومع ذلك يجدر بنا أن نشير الى أن حسان ابن ثابت افتخّر في بعض الأحيان بقيم جاهلية وباسلوب جاهلي، ولاسيما في مطلع عهد النبوة، حيث كان حديث العهد بالاسلام، ولم يكن قد تمثل القيم الاسلامية. وهكذا لم يكن بوسعه أن يتخلص من اسلوبه الجاهلي بسهولة؛ لكن القيم الاسلامية أخذت تدخل شعره يوما بعد يوم، لتحل محل القيم الجاهلية التي راحت تنحسر شيئا فشيئا.

ولم يقتصر أثر الاسلام على ذلك، بل لقد امتد الى بناء القصيدة أيضا، اذ نلاحظ ميل هؤلاء الشعراء الى القصائد القصيرة، وميلهم الى التخفف من المقدمات بشكل عام. وهنا نود أن نسجل احترازا مهما، هو أننا نتحدث عن تلك القصائد كما وصلت الينا، فمن المعروف أن شعرا كثيرا قد ضاع لأسباب لامجال لذكرها هنا، وقد يكون هذا الشعر الضائع أبياتا من أول القصيدة أو من آخرها أو من وسطها، بل قد يكون

قصيدة كاملة . اما بالنسبة الى ماوصل الينا، فيمكن أن نقول : إن المقدمة الطللية لم تظهر الآ في شعر حسان ،وظهرت على استحياء . والواقع أنها قليلة في الشعر الاسلامي عموما . وقد ذهب الباحثون في تعليل قلتها مذاهب شتى (٢٦) . ويمكن أن نرد ذلك الى الفهم الجديد للحياة والموت والكون . فلم تعد الطبيعة عدو الانسان، ولم يعد الموت مخلوقا مخيفا يأخذ الانسان الى هاوية الفناء والعدم . ثم ان الماضي لم يعد زمنا سعيدا مقدسا ،بل صار ،في نظر الدين الجديد ،ملوثا بالكفر والضلال.

وهناك أنواع أخرى من المقدمات كمقدمات الهم والحزن التي نجدها في بعض قصائد الرثاء . ولكنها،هي الأخرى ،قليلة وقصيرة . ولا ريب في أن الأحداث الكثيرة المتلاحقة ،ومهمة شعرائنا في أن يصوروا تلك الأحداث ،كل ذلك ساعد على التخفف من المقدمات التي لم تكن تعني الشاعر بقدر ماكان يعنيه موضوعه الأساسي . ثم إن الشاعر في زحمة تلك الأحداث لم يكن بوسعه أن يطيل التأمل والتفكير . وهذه العوامل لم تترك أثرها على مقدمات القصائد فحسب،بل أثرت في طريقة التخلص من غرض الى غرض ،حيث نجدهم ينتقلون بشكل مفاجىء في معظم الأحيان .

واذا انتقلنا للحديث عن أغراض القصيدة كان بوسعنا أن نسجل ملاحظتين: الأولى : أن هذه القصيدة قليلة الأغراض اذا قيست بالقصيدة الجاهلية . والثانية : أنها تخلصت من كثير من الأغراض التي اهتم بها الجاهليون . فنحن لانشاهد الظعائن، ولا الثور الوحشي ، أو غيره من الحيوانات في صراعه مع كلاب الصيد أو مع الصياد، ولا نشاهد الشاعر في رحلته الشاقة الى الممدوح ،كما لانشاهد الصحراء المخيفة التي يقطعها الشاعر البطل على ناقته الصلبة .... كل ذلك وغيره مما توسل به الشاعر الجاهلي لعرض آرائه في الحياة وأفكاره ،لم يعد ذا قيمة بالنسبة لشعرائنا الذين تمسكوا بما قدمته الدعوة الجديدة من تفسيرات للأمور التي شغلت أسلافهم لمدة طويلة .

ولعلّ قائلا يقول : ان شعراء الرسول(ص) حضريون ، فهم بعيدون عن الرحلة والتنقل وعن الصحراء وحيواناتها ، وكل ذلك صحيح، ولكن الأصح هو أنه "... لاعلاقة بين الانتقال في الواقع والانتقال في القصيدة، فالرحلة في القصيدة هي رحلة كل حياة بدوية وحضرية ؛ والشاعر يأخذ من الواقع ويضيف اليه ويعليه ويفسره ويكمله "(٢٧). ثم إن التراث الشعري الذي يرثه الشاعر هو البيئة المباشرة ،لأن الشعراء يستمدون منه أكثر مما يستمدون من الطبيعة والمجتمع (٢٨).

وعلى أية حال ،فان شعرائنا التزموا بالدعوة الجديدة ،ولم يكن هذا الالتزام مجرد رد على شعراء المشركين — مع أهمية هذا الرد — ولكنه كان أيضا تعبيرا عن آراء الدعوة الجديدة ومفاهيمها وقيمها؛ وكان لابد أن يؤثر هذا الالتزام في شعرهم ،لكن هذا التأثير لم يكن سلبيا في كل الأحيان . صحيح أن الاسلام ضيق عليهم مجالات القول أحيانا،ولم تتح لهم أحداثه المتلاحقة اطالة التأمل والتفكير، ولكنه فتح أمامهم مجالات جديدة للقول، وأمدهم بمعان جديدة ومفاهيم جديدة أيضا، فتركوا لنا شعرا جميلا هو شعر اسلامي

---

٢٦ — انظر مثلا : مقالات في الشعر الجاهلي ١٣٥ . وشعر الفتوح الاسلامية : ٢٣٩ .

٢٧ — دراسة الأدب العربي : ٢٤٢ .

٢٨ — المرجع السابق : ١٠٨ .

في المقام الأول ، واستطاعوا أن يعبروا عن المفاهيم الجديدة بشكل مناسب،واذا كان انتاجهم الشعري قد قلّ في مرحلة الخلفاء الراشدين (ر)،فانهم قد صوروا لنا عهد النبوة تصويرا يجعلنانعيد النظر في مقولة ضعف الشعر في صدر الاسلام ،ولاسيما أنهم استطاعوا بعد ذلك أن يقدموا لنا صورا فنية جميلة،برزت فيها الخطوط الاسلامية بشكل واضح،ولاسيما في صورة الرسول الكريم (ص) ، كما قدموا لوحات جميلة تصور المعارك الاسلامية ،لوحات زاخرة بالحركة والحياة ،جنحوا فيها الى التفصيل،فاهتموا بالجزئيات في كثير من الأحيان ، ولم تكن صورة الخيول أقل جمالا من صورة المعركة ،فقد استطاعوا أن يخرجوا بخيولهم من اهابها الضيق ،فأعطوها من المعاني ماجعلها أعظم شأنا من كونها مجرد خيول ، واذا كنا نجد عندهم شعرا لايرقى الى مستوى الشعر الجاهلي من حيث جمال الصورة ،فيجدر بنا أن نفسر ذلك في ضوء ظروف العصر ،ومن خلال الفهم الاسلامي للشعر. أما أن نحكم عليه بالضعف ، أو أن نقيسه بالشعر الجاهلي ،فأمر فيه من الجور أكثر مما فيه من العدل. ذلك لأن الشعر يختلف ـ كما يقول حازم القرطاجني ـ بحسب اختلاف أنماطه وطرقه ،وبحسب اختلاف الأزمان وما يوجد فيها من الامورالتي تهم الناس ،وبحسب اختلاف الأمكنة ،واختلاف أحوال القائلين وأحوال مايتعرضون للقول فيه (٢٩)

This essay discusses the works of prophet Muhammads poets Hassan Ibn Thabet. Ka'b Ibn Malek and Abdullah Ibn Ruwaha in the beginning of Islam . It also tries to show the depth of their belief in the new religion: and its effect on the artistic aspect of their poetry .

٢٩- منهاج البلغاء ٣٧٤، ٣٧٥

المراجـــــع

آ ـ الدواوين الشعريـة

١ـ حسان بن ثابت ـ الديوان ، ١٩٧٤ ، تحقيق د. وليد عرفات، دار صادر ـ بيروت .

٢ـ عبد الله بن رواحة ، الديوان ، ١٩٧٢ ، ـ تحقيق د. حسن با جودة ، دار التـراث ـ القاهرة .

٣ ـ كعب بن مالك ، الديوان ، ١٩٦٦ ، ـ تحقيق سامي مكي العاني ، بغداد ، ط١ .

ب ـ الكتـــب

ـ ابن الأثير ، عز الدين بن أبي الكـــرم الشيباني ـ تا/بلا ـ أسد الغابة فـــي معرفة الصحابة ـ دار احياء التـــراث العربي ـ بيروت .

ـ الأصفهاني ، أبو الفرج ـ ١٩٥٠ ـ الأغاني ط٢ دار الكتب المصرية ـ القاهرة .

ـ ابن رشيق ، أبو الحسن القيرواني ـ تا/بلا العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقـــده تحقيق محي الدين عبد الحميد .

ـ ابن عبد البر، يوسف عبد الله بن محمد ـ تا/بلا ـ الاستيعاب في معرفة الأصحـــاب ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ القاهرة .

ـ ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد الأندلسي ـ ١٩٤٩ ـ العقد الفريد ـ ضبطه أحمـــد أمين ، إبراهيم الأبياري ، عبد الســـلام هارون ـ القاهرة .

ـ القاضي ، النعمان عبد المتعال ـ ١٩٦٥ ـ شعر الفتوح الاسلامية في صدر الاســـلام القاهرة .

ـ القرطاجني ، حازم ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ـ تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ـ تونـس .

ـ ناصف ، مصطفى ـ ١٩٨١ ط٢ ـ دراسة الأدب العربي ـ دار الأندلس .

ـ اليوسف ، يوسف ـ ١٩٧٥ ـ مقالات في الشعر الجاهلي ـ وزارة الثقافة بدمشق .